د. عبد النبي اصطيف

دائرة الأدب العالمي دائرة غربية

يحكمها مجلس أمن غربي

يزعم بعضهم، ويبدو أنه على حق فيما يبدو للكثيرين من المعنيين بشؤون الأدب من وجهة نظر عالمية، أو من منظور عولمي Global Perspective، أن مصطلح "الأدب العالمي" "Weltliteratur" (الذي سكّه أول ماسكّه المؤرخ الألماني أوغست لودفيغ فون شلوتزر August Ludwig von Scholzer (1735–1809 عندما أورده عام 1773 في كتابه الأدب والتاريخ الإيسلنديان(1)، وروَّج له يوهان وولفغانغ فون غوته بين الناس من خلال رسائله ومقالاته وتعليقاته وأحاديثه مع مريده يوهان بيتر إيكرمان، على غير ما أراده له من سكّه ومن روّج له، محكوم بمجلس أمن غربي يملك حق النقض، فيُدخل من يشاء من الآداب القومية في دائرته، ويصرف من يشاء عن هذه الدائرة، أو قد يسمح له بموقع متواضع على المحيط منها.

فعلى سبيل المثال، لا يشير ماريو- فرانسوا غويار(أحد أعلام الدرس المقارن للأدب في فرنسا، والذي تتلمذ على أيدي نخبة متميزة من أساتذة الأدب المقارن في **السوربون والكوليج دو فرانس** من أمثال بول هازار وفيرنان بالدنسبرغيه وجان ماري كاريه)، في كتابه الجامعي واسع الانتشار والمعنون بـ "**الأدب المقارن**" والذي ترجم أكثر من مرة إلى **العربية(2)**، إلى أكثر من 150 كاتباً فقط من كُتّاب العالم، منهم 124 كاتباً من 3 أقطار أوروبية هي فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا، و12 كاتباً من إيطاليا، و6 كُتّاب من الولايات المتحدة الأمريكية، و4 كُتّاب من اليونان القديمة، ومثلهم من إسبانية، و3 كُتّاب روس، فضلاً عن الفيلسوف إراسموس، والكاتب المسرحي أونيسكو الروسي/الفرنسي، وأديب أمريكي لاتيني واحد(3)، أي أن أمثلة غويار تأتي من دول حلف **الناتو** أساساً، أو حتى من عدد محدود من دوله لايتجاوز الربع، أي هي محكومة بالمنظور الغربي، وبنزعة تمركز أوروبية غربية حول الذات لافتة للنظر.

وربما كان من الإنصاف الإشارة إلى أن عديداً من مقارني العالم شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، قد تنبهوا إلى **انعدام التوازن في تدبّر الأدب العالمي، تأليفاً، ودراسةً، وجمع مختارات، وقيماً فنية ومعرفية وإنسانية، وإلى أن هذا الأدب، حتى عهد قريب، كان في نظر الغرب أدب الصفوة في منتدى الأمم والشعوب،ولذا كان من الطبيعي في منظوره النخبوي المتمركز حول الذات أنيرى في الأدب الأوروبي الغربي المعيار الذي يسمح له بقبول آداب الآخر غير الأوروبي في ناديه الخاص بأدباء الغرب وما يستسيغونه من مختارات من آداب العالم.**

يكتب سوكيهيرو هيراكاوا الدارس المقارني الياباني عن تعليمه الجامعي في طوكيو في الخمسينيات من القرن العشرين:

"صحيح أن باحثين عظاماً من أمثال كورتيوس، وأورباخ، وويليك كتبوا أعمالهم البحثية الصروح بغرض تجاوز النزعة القومية. ولكن البحث الغربي في الأدب المقارن، بالنسبة إلى خارجي مثلي، بدا تعبيراً عن شكل جديد من أشكال النزعة القومية –النزعة القومية الغربية، إذا ما كان بإمكاني

استعمال تعبير كهذا. إنه بدا لنا نادياً خاصاً بالأوروبيين والأمريكيين. لقد كان نوعاً من نطاق رفاهية تعاونية أوروبية غربية أكبر"(4).

وكان فيرنر فريدريش قد وصف استعمال مصطلح **"الأدب العالمي"** من جانب المقارنين في العالم المتقدم، ولاسيما الغرب الأوروبي الأمريكي، بأنه ببساطة **علاقات عامة سيئة، تسوء أكثر من نصف الإنسانية**. بل إنه اقترح أن يسمى برنامج كهذا بأنه برنامج **"آداب الناتو"** ورأى في ذلك مبالغة لأنه لا يشمل أكثر من ربع أمم الناتو(5).

وعلى أي حال فإنه من البيّن أن متن الأدب العالمي، كما يُتداول حتى في أيامنا هذه، لا يزال يعاني من عدم توازن واضح في تمثيله لأمم العالم وشعوبه أدبياً، لأنه لا يفسح المجال واسعاً إلا للقوي والغني في هذه الأمم، وحتى عندما تنبَّه إلى ضرورة الالتفات إلى الشرق الآسيوي الناهض، الذي بدأ ينافس الغرب في قوته وغناه، فإنه انحاز إلى الأمم الأقوى والأغنى في هذه الأمم (اليابان، والصين، والهند)، وأغفل أمماً ضعيفة وفقيرة، بسبب اختلال معاييره الفنية والأدبية والإنسانية، أولنقل ازدواجية هذه المعايير، في تقويم الأعمال الأدبية في أكبر قارات العالم.

تكتب راي تشو Rey Chaw في مقالتها المعنونة بـ "باسم الأدب المقارن" المنشورة في كتاب تشارلز برنهايمر **"الأدب المقارن في عصر نزعة التعدد الثقافي"**:

"من بين جميع القسمات البارزة للنزعة المركزية الأوروبية Euro-centrism التي تبرز في سياق الجامعة، تصور الثقافة على أنها تستند إلى الفكرة الأوروبية الحديثة للدولة القوميةNation-State، وعلى ضوء هذا الأمر فإن الأدب المقارن قد انتقد بحق لتركيزه على آداب بضع دول قومية قوية في أوروبة الحديثة. غير أن المشكلة لا تختفي إذا أحللنا بكل بساطة الهند والصين واليابان محل إنكلترا وفرنسا وألمانيا. فنحن ما نزال نشهد، حتى هذا اليوم، منشورات تحمل عناوين من مثل **"مداخل مقارنة إلى روائع الأدب الآسيوي"**، وتتبنى هذا الأنموذج

المركزيّ الأوروبي ذا التوجه القومي للأدب **باسم الآخر**، وفي أمثلة كهذه فإن مفهوم الأدب يخضع وعلى نحو مقيّد إلى فهم داروينيّ- نسبة إلى داروين- اجتماعي للأمم: "الأعمال الروائع" تماثل الأمم "الروائع"، والثقافات "الروائع". ومع الاحتفاظ بالهند والصين واليابان ممثلة لآسيا، فإن ثقافات أقل بروزاً في التلقي الغربي مثل كوريا، وتايوان، وفيتنام، والتيبت، وثقافات أخرى، تحيّد جانباً بكل بساطة بوصفها الثقافات "الأخرى" المهمشة، بالنسبة إلى "الآخر" الذي هو الحضارات الآسيوية العظيمة"(6).

وعلى أية حال فإن من الإنصاف أيضاً أن يشير المرء إلى توجه، يتنامى هذه الأيام على نحو ملحوظ، إلى التوسع في هذا المنظور من حيث لغات هذا الأدب، وكُتّابه كذلك. وهذا مؤشر إيجابي ينبغي تشجيعه وتعزيزه والإسهام به من جانب كتّاب سائر العالم، ولاسيما أن كتّاب الآداب الشرقية العريقة: كالأدب الصيني، والياباني، والفارسي، والعربي، والهندي، وغيرها، فضلاً عن كُتّاب أوروبة الشرقية، وكُتّاب إفريقية وأمريكا اللاتينية، الذين عليهم أن يبذلوا مايكفي من الجهود حتى يُدخلوا كتاباتهم في متن الأدب العالمي.

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى ذهن المرء في هذا الموضع هو:

ما الأعمال الأدبية التي تُقرأ هذه الأيام بوصفها تنتمي إلى دائرة "الأدب العالمي"؟

يمكن القول في معرض الإجابة عن هذا السؤال إنه غالباً ما تشمل هذه الأعمال أعمالاً يُشار إليها على أنها من **الكلاسيكيات Classics** وأعمالاً أخرى يشار إليها على أنها من **الروائع Masterpieces** وأعمالاً –قد لا تكون من أي من المجموعتين السابقتين- تُسوَّغ قراءتها على أساس من كونها **نوافذ على عوالم "الآخر"** الذي ينبغي أن يُعرَف ويُفهم بوصفه جزءاً من عالمنا الذي بات يؤمن بالتعددية، بل بالعولمية.

فأما الأعمال الكلاسيكية فإنها تستند إلى قاعدة مكينة من **الدراسات الكلاسيكية Classical Studies** التي تخصص لها الجامعات المرموقة قسماً خاصاً بها، يقوم أساتذته وطلابه على تدبّر التقاليد الأدبية اليونانية والرومانية:

- بوصفها من ناحية **نماذج سامية** تحتذى من جانب، أو يثار عليها من جانب آخر، أو تُحاور ويتفاعل معها من جانب ثالث.
- وبوصفها من ناحية أخرى **مكوناً أساسياً من مكونات الآداب الأدبية الغربية** منذ عصر النهضة وحتى عصرنا الراهن.

ومع أن لكل تقليد أدبي عريق أعماله الكلاسيكية التي تحتذى أو تحاور أو يثار عليها، فإن الثقافة الأوروبية استطاعت أن ترسخ لنماذجها الكلاسيكية موقعاً سامياً على رأس هرمية خلقتها لأدبها، وفكرها، وكل ما يتصل بها، بوصفها النماذج الأمثل التي يتطلع إليها أي أديب يسعى إلى العالمية من جانب، وغاية أي مسعى قومي لتطوير التقليد الأدبي الخاصة بأمة ما، أو شعب ما، أو قوم ما على ظهر البسيطة. ومن ثَمَّ أسهمت في نشرها في سائر أنحاء العالم على أنها تراث إنساني ينبغي أن يظفر بكل احترام وإجلال من الجميع.

ومعنى هذا أيضاً أن الأعمال الكلاسيكية الأخرى (غير الأعمال اليونانية والرومانية، وغير ما عُدّ لاحقاً منتمياً لأسرتها الغربية) بحاجة إلى اعتراف غربي بمكانتها وأهميتها وسموِّها حتى تدخل دائرة الأدب العالمي، ومن هنا قلّت نسبة هذه الأعمال في المتن الكلي للأدب العالمي، وتضاءل نصيبها في كتب الأدب العالمي المعتمدة في تدريس هذا المقرر في الجامعات الأوروبية الغربية والأمريكية، واقتصر الاهتمام بها على عدد محدود من الأعمال تقبَّلها الذوق الغربي مترجمةً إلى لغة من لغاته الرئيسة، كما هو الشأن في ملحمة **المهاباراتا**، وملحمة **الشاهنامة**، **وحكاية كنجي**، **وألف ليلة وليلة**، **وكليلة ودمنة**، وغيرها.

وأما الروائع فالغالب أنها أعمال أوروبية غربية تناقلتها أجيال الأوروبيين عبر العصور، وعمدت إلى ترجمتها إلى اللغات الأوروبية الغربية المختلفة بوصفها قمماً في آدابها القومية تكشف عن روح أمتها وشعبها وقومها، وتتسنم ذروة سابقة في وعيهم بهويتهم.

ومع انفتاح الأوروبيين على الأمم الأخرى في أزمنة الحرب والسلم، وفي عصور الاستكشاف والتوسع الاستعماري والانفتاح العولمي، فقد قبلوا بعض

قمم الآداب الأخرى وأدخلوها في دائرة الروائع العالمية، ولكنها ظلت محدودة بالقياس إلى تواريخ أممها التي أنتجتها، وإلى إسهامها في الحضارة العالمية.

وأما الأعمال التي ينظر إليها على أنها **نوافذ على عوالم "الآخر" الصديق، والعدو، والمحايد**، فإنها تُختار بوصفها مداخل لتعرّف هذا الآخر وفهمه بغرض تسهيل التعامل معه وتدبّره واحتوائه ومواجهته حسب مقتضى الحال. ومن الملاحظ أن دائرة هذه الأعمال تتسع يوماً بعد يوم بسبب اتساع المصالح الغربية، وتنوع اهتمامات الغرب المختلفة، وتوافر وسائل الاتصالات الحديثة، وازدياد حركة الناس بين القارات، وتوافد الجاليات المختلفة إلى الغرب والشمال الغنيين بحثاً عن فرصة علم أو عمل أو ملاذ آمن لا يتوافر في غير بلدانهما.

(1) انظر:

Theo D'haen,
The Routledge Concise History of World Literature
(Routledge, New York and London, 2012), p. 5.

(2) انظر على سبيل المثال ترجمة الدكتور محمد غلاب للكتاب:

الأدب المقارن،

تأليف م. ف. جيار، ترجمه الدكتور محمد غلاب وراجعه الدكتور عبد الحليم محمود، (لجنة البيان العربي، القاهرة، 1956)؛ و: ماريوس فرانسوا غويار

الأدب المقارن

مع مقدمة من المؤلف خاصة بالطبعة العربية، ترجمة هنري زغيب (منشورات عويدات، بيروت- باريس 1978).

(3) طبقاً للإحصاء الذي أجراه ديفيد دمروش في بحثه "أطر للأدب العالمي"، وانظر:

David Damrosch,
"Frames for World Literature", in:
Grenzer der Literatur: ZuBegriff und Phanonmen des Literarischen,
Herausgegeben von Simon Winko, FotisJannidis, Gerhard Lauer
(Walter de Gruyter, Berlin- New York, 2009), pp. 499-500**.**

(4) انظر:

SukehiroHirakawa,
"Japanese Culture: Accommodation to Modern Time", in:
Yearbook of Comparative and General Literature, No. 28, 1979, pp. 46-50.

(5) انظر:

Werner P. Friederich,
"On the Integrity of Our Planning", in:

The Teaching of World Literature,

Proceedings of the Conference at the University of Wisconsin, April 24-25, 1959, Edited by Haskell M. Block,

(The University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1960), pp. 14-15.

(6) انظر:

Rey Chow,

"In the Name of Comparative Literature", in:

Comparative Literature in the Age of Multiculturalism, Edited by Charles Bernheimer

(The Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1995), p. 109.